مشروع المسح الآثاري والتراثي لمنطقة المحس: رؤى حول التاريخ والهوية الثقافية

أ.د علي عثمان محمد صالح

قسم الاثار - جامعة الخرطوم

مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر- السودان

مستخلص:

شهدت الولاية الشمالية في السودان بدايات النشاط الأثري المنظم في أوائل القرن العشرين، مدفوعاً بمشاريع كبرى مثل بناء خزان أسوان والسد العالي، التي أدت إلى إجراء مسوحات وتنقيبات أثرية هامة. رغم أن هذه الجهود ساهمت في وضع أسس لفهم التراث الثقافي السوداني، إلا أن العمل الأثري ظل لفترة طويلة تحت سيطرة البعثات الأجنبية. مع استقلال السودان في منتصف القرن العشرين، بدأت الجهود الوطنية تتبلور، حيث أُنشئت مؤسسات مثل الهيئة العامة للآثار والمتاحف وقسم الآثار بجامعة الخرطوم في عام 1964. وقد ساهم هذا القسم بشكل خاص في تطوير البحث الأثري في السودان من خلال تنفيذ مشاريع ميدانية، وتأهيل كوادر وطنية، والتعاون مع مؤسسات محلية وعالمية. تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على تطور العمل الأثري في السودان، مع التركيز على دور المؤسسات الوطنية مثل قسم الآثار بجامعة الخرطوم في إدارة وحماية التراث الثقافي، ومساهمتها في تعزيز المعرفة الأثرية من خلال مشاريع بارزة مثل مشروع المحس الآثاري.

الكلمات المفتاحية: منطقة المحس، الآثار، التراث، اللغة، الهوية الثقافية

Mahs Archaeological and Heritage Survey Project: Insights on History and Cultural Identity

Professor Ali Osman Mohamed Salih

Abstract:

Northern Sudan witnessed the beginnings of organized archeological activity in the early 20th century, spurred by large-scale projects such as the construction of the Aswan Dam and High Dam, which resulted in extensive archeological surveys and excavations. While these efforts laid the foundations for understanding Sudan's cultural heritage, archeological work remained largely under the control of foreign missions for an extended period. With Sudan's independence in the mid-20th century, national efforts began to take shape, marked by the establishment of institutions such as the National Corporation for Antiquities and Museums (NCAM) and the Department of Archeology at the Uni-

versity of Khartoum in 1964. The latter played a particularly important role in promoting archeological research in Sudan through field projects, the training of national experts and cooperation with local and international institutions. This study aims to shed light on the development of archeological work in Sudan, focusing on the role of national institutions such as the Department of Archeology at the University of Khartoum in the management and protection of cultural heritage. It also examines their contribution to the expansion of archeological knowledge through pioneering projects such as the Mahas Archeological Project.

Key words: Mahas region, Archaeology, Heritage, Language, cultural identity

مقدمة:

نشأت فكرة مشروع المسح الآثاري والتنقيب الإنقاذي واللغة والاستيطان والتاريخ لمنطقة المحس (أنظر خريطة رقم 1) في أواخر ثمانينيات القرن العشرين كمبادرة علمية تسعى لدراسة شاملة للمنطقة بهدف فهم تاريخها الثقافي والاجتماعي الممتد عبر العصور. أُسست هذه الفكرة على أوراق بحثية وضعها البروفيسور علي عثمان محمد صالح، تناولت خطط العمل ومناهجه وأساليبه، بالإضافة إلى تحديد أهداف المشروع ودوره في تأطير الدراسات الثقافية والاجتماعية التاريخية باستخدام مناهج متعددة التخصصات (Osman, 1990; Osman, 2004). شكل المشروع مثالاً على علم آثار وطني متكامل يسعى لتلبية إحتياجات المجتمع السوداني من خلال منهجية علمية تتماشى مع القوانين الدولية. تمثلت الأهداف الرئيسية للمشروع في دراسة التتابع والاستمرارية الثقافية والبشرية والعمرانية بمنطقة المحس، مع التركيز على فهم العوامل البيئية والاقتصادية والاجتماعية التي أثرت على تطور المنطقة (Whiteman, 1971; Osman, 1990; Hon-egger and Williams, 2015; Williams, 2015)، بالإضافة إلى توثيق التحولات الدينية واللغوية عبر الحقب التاريخية(James, 2008; Jok, 2015) . كما سعى المشروع إلى دراسة التداخلات الثقافية مع المجموعات الوافدة وإمكانية بناء نموذج لدراسة الاستيطان الإقليمي يمكن تطبيقه على مناطق أخرى في السودان(Essien, and Falola, 2008). رغم تحقيق تقدم ملحوظ خلال الموسمين الأولين في تسجيل المواقع الأثرية وتحليلها، واجه المشروع تحديات كبيرة، أبرزها تغير الأولويات الوطنية بسبب التخطيط لبناء خزان كجبار، ما حوّل المشروع إلى مهمة إنقاذية (Osman, 2004, Edwards, and Osman, 2012). وبالرغم من تفرق أعضاء الفريق الأصليين ونقص الدعم المالي واللوجستي. لم تتوقف الجهود لإعادة تفعيل المشروع، حيث أُعيدت صياغة أهدافه وأضيفت مجالات جديدة، مثل دراسة الأسماء الجغرافية واللغويات، مع مشاركة خبراء دوليين (Hashim, and Bell, 2000; Hashim, 2001; Bell, and Hashim, 2002). تتميز منطقة المحس بتنوعها الثقافي والجغرافي، ما يجعلها ميداناً مثالياً للدراسات الإقليمية التي تجمع بين الآثار واللغة والتراث(Haaland, 1977; Ed-

(wards, 2004, Osman, 2004 . ركز المشروع على الجمع بين الدراسات الميدانية والمسح والتنقيب المنهجي لتوثيق المواقع المهددة، إلى جانب بناء أرشيف شامل يتضمن التقارير والمقتنيات والصور (Edwards, 2004, Osman, 2004; Edwards, and Osman, 2012). ومع أن المشروع حقق نتائج مهمة، فإن الدراسات السابقة أظهرت قصوراً واضحاً في توثيق المواقع بشكل متكامل أو في تقديم رؤية شاملة لتأثير العوامل البيئية والاجتماعية على الإستيطان في المنطقة عبر العصور. المنهجية الحالية للمشروع تعتمد على إعادة تنظيم الأولويات وإدخال أدوات وتقنيات حديثة مثل نظم المعلومات الجغرافية (GIS) وتحليل الصور الجوية لتوسيع فهم المنطقة جغرافياً وزمنياً. كما سيتم تعزيز التعاون بين التخصصات لضمان تقديم رؤية متكاملة تستند إلى البيانات الميدانية والتحليل العلمي، مع الإستفادة من الخبرات المحلية والدولية لضمان استدامة العمل العلمي وتعزيز دوره في حفظ التراث الثقافي للمنطقة.

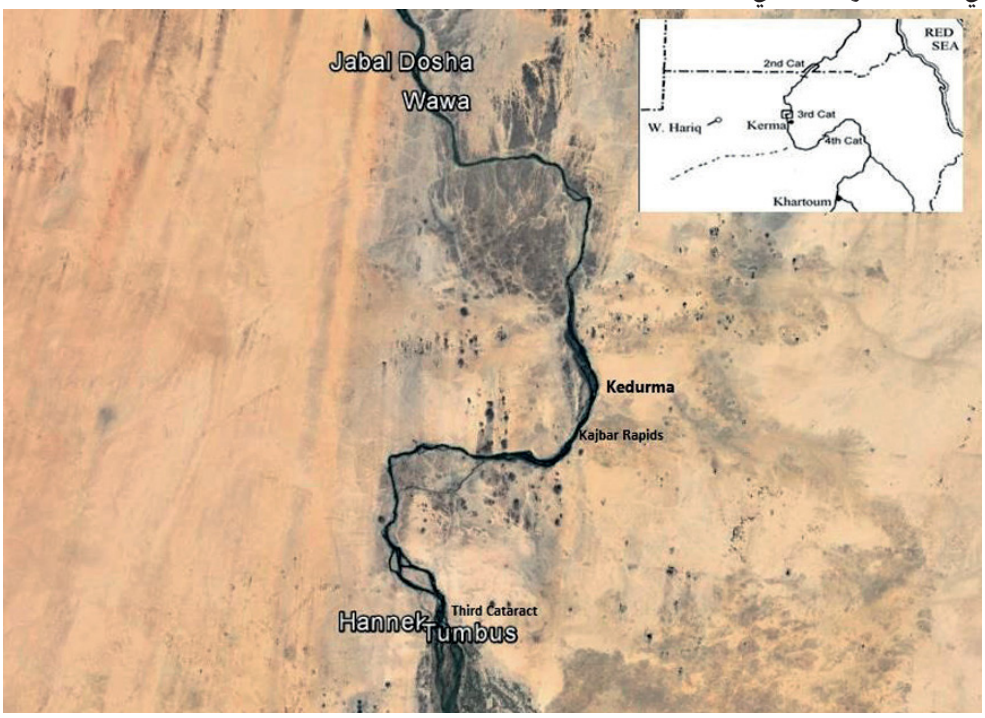

(Map 1. Third Cataract Region (based on © Google Earth) After, (Bashir, et al., 2021

جيولوجيا المنطقة:

تقع المنطقة التي شملها المسح في المساحة الواقعة إلى الشمال من الشلال الثالث لنهر النيل في شمال السودان، وتمتد ما بين قرى حنك على الضفة الغربية وتمبس على الضفة الشرقية، جنوب الشلال الثالث، وصولاً إلى منطقة جبل دوشة وواوة شمالاً. حيث يمثل جبل دوشة، معلماً طبيعياً بارزاً يمتد نحو 3 كيلومترات داخل الصحراء (Edwards, and Osman, 2012; Bashir, et

al., 2021) تتميز المنطقة بتنوع جغرافي يشمل الجبال والصحارى والأودية الموسمية التي تغذيها الأمطار، بينما يبقى نهر النيل المصدر الأساسي والدائم للمياه، حيث يعبر المنطقة من الجنوب إلى الشمال بين شلالي تمبس وسبو-كجبار (انظر خريطة رقم 2). تُعد الأراضي الزراعية محدودة في هذه المنطقة، لكنها غنية بالتربة الغرينية، خاصة في الشريط الممتد بين نوري وسبو-كجبار، حيث يمتد إلى حوالي 3 كيلومترات عرضاً وأكثر من 13 كيلومتر طولاً (Edwards, and Osman, 2012). كما أن الطابع الجيولوجي للمنطقة، المكوّن من صخور القاعدة من عصر ما قبل الكامبري محاطة بالحجر النوبي الرملي والطين والحصى (Whiteman 1971)، قد أثر على أنماط الصرف المائي فيها، بما في ذلك الأودية التي تربط معظم قرى المحس بالصحراء الشرقية والغربية. تتميز هذه الوديان بظروف بيئية ملائمة للاستيطان البشرى منذ فترات ما قبل التاريخ (Osman, 2004; Bashir, et al., 2021).

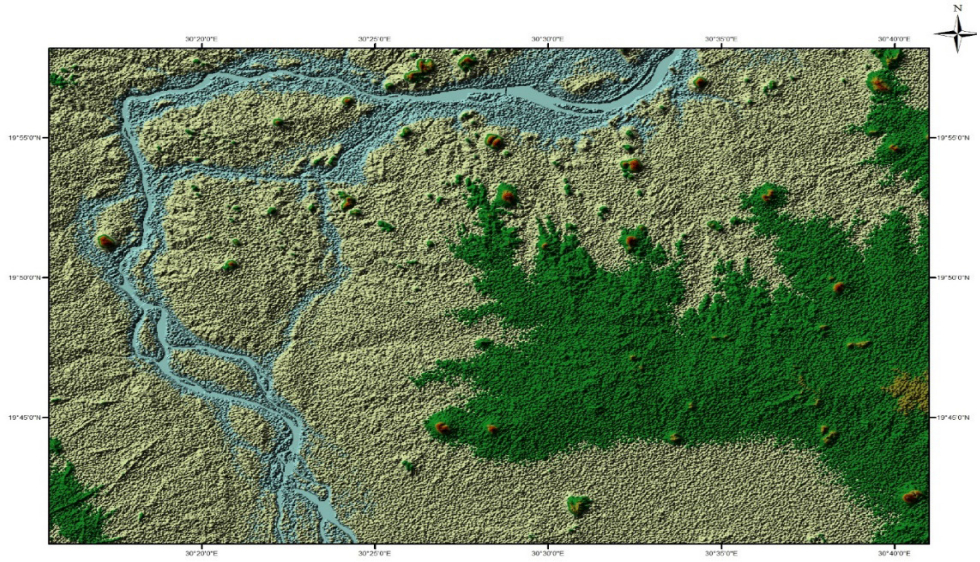

منظر الأرض بمنطقة الشلال الثالث: استناداً إلى © هيئة المساحة السودانية 2018 ، SSA.

أهداف المشروع وخطة العمل:

بناءً على ما سبق، تم حصر أهداف المشروع في التالي: أولاً، تحديد المواقع الأثرية باستخدام نظم المعلومات الجغرافية والسجلات الوثائقية التاريخية والمصادر الأخرى مثل الروايات الشفاهية. ثم إجراء استكشاف أولي للتحقق من المواقع المعروفة وتحديد المواقع الرئيسية الجديدة وتصنيفها وتوثيقها، بما في ذلك رسم الخرائط والمخططات الخاصة بها. و المرحلة التالية، إجراء مسوحات مكثفة للمواقع ذات الأهمية الخاصة ومن ثم وحصرها وتحليلها. وأخيراً، إجراء مسح دقيق للمواقع المختارة مع إمكانية إجراء حفريات تجريبية لمعرفة ودراسة الطبقات الأثرية من أجل دراستها بشكل مفصل في المستقبل (Edwards, and Osman, 1991; Osman, 2004; Edwards and Osman, 2012).

نتائج المواسم الأولى:

قدم المشروع العديد من الاكتشافات المهمة التي أضافت أبعاداً جديدة إلى معرفتنا بتاريخ المنطقة الثقافي. هذه النتائج قدمت إجابات لأسئلة كبيرة في تاريخ السودان القديم والحديث وأسهمت في إعادة تشكيل فهمنا لتلك الفترات.

مواقع ما قبل التاريخ ومجاري الأنهار القديمة: تم تحديد العديد من مواقع العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث، إلى جانب مجاري أنهار قديمة شرق النيل وحتى خط السكة الحديد القديمة. كشفت هذه الاكتشافات أن منطقة الشلال الثالث كانت تضم جزيرتين كبيرتين في الماضي، مما يبرز أهمية المنطقة كموقع ملائم للسكنى في التاريخ القديم. تم توثيق 47 موقعاً تعود لفترة ما قبل التاريخ، منها 17 موقعاً تعود للعصر الحجري الحديث، مما يبرز إمكانية تطوير إطار ثقافي متجانس لهذه الفترة (أنظر خريطة رقم 3).

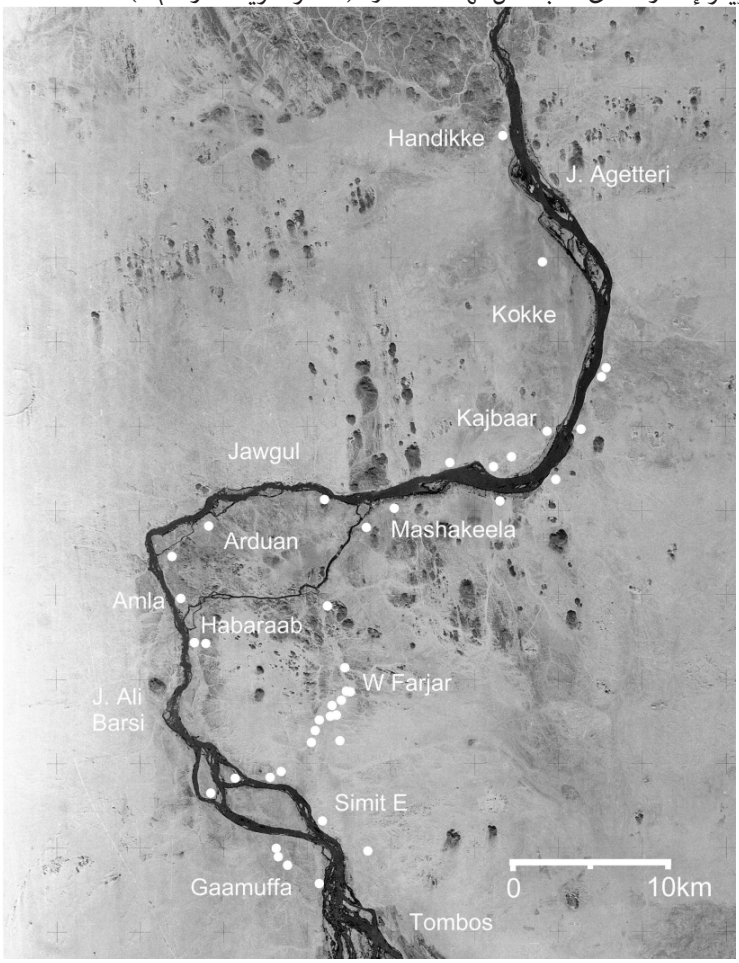

خريطة رقم (3). مواقع العصر الحجري المتأخرة 3000-7000 ق م Edwards, and Osman, 2012

المستوطنات المصرية في تمبس وجزيرة دبكي: تم الكشف عن مراكز إدارية مصرية تعود لعصر الدولة المصرية الحديثة، بما في ذلك مقابر لأمراء مصريين حكموا الإقليم بعد سقوط مملكة كرمة. هذا الاكتشاف يغير النظرة التقليدية التي تفترض تراجع النفوذ المصري من المنطقة بعد انتهاء فترة كرمة.

الوجود الإسلامي ضمن الممالك المسيحية: أظهرت الدلائل الأثرية وجود إمارات إسلامية في منطقة مملكة دنقلا المسيحية منذ القرن التاسع الميلادي، مما يعكس التعايش بين الإسلام والمسيحية. تضمنت الاكتشافات قباباً ومقابر مميزة في دلقو وسدلة، وأظهرت تأثير الطريقة الركابية في المنطقة خلال القرون العاشر وحتى السادس عشر (أنظر خريطة رقم 4).

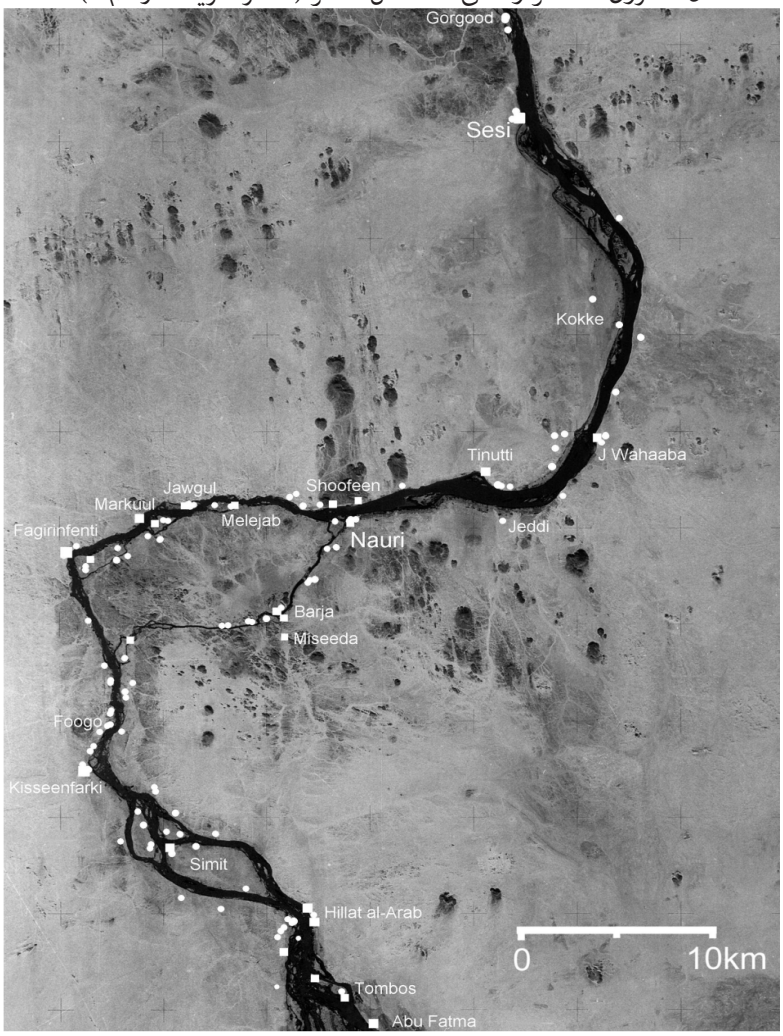

مواقع العصر الوسيط- مسيحي، وإسلامي Edwards, and Osman, 2012

آثار الفترة العثمانية: أسفرت الاكتشافات عن توثيق مواقع تعود للعهد العثماني، مما يوضح التحولات الثقافية والسياسية التي شهدتها المنطقة. كما فسرت هذه النتائج أسباب الهجرة الكبرى للمحس إلى وسط السودان في القرن السابع عشر، ودورها في انتشار المدارس القرآنية وتراجع التصوف تحت تأثير الإصلاحيين العثمانيين. ومن أشهر آثار الفترة العثمانية في إقليم المحس المنازل الطينية المحصنة والتي تعرف محلياً باسم الدفوفة (أنظر خريطة رقم 5).

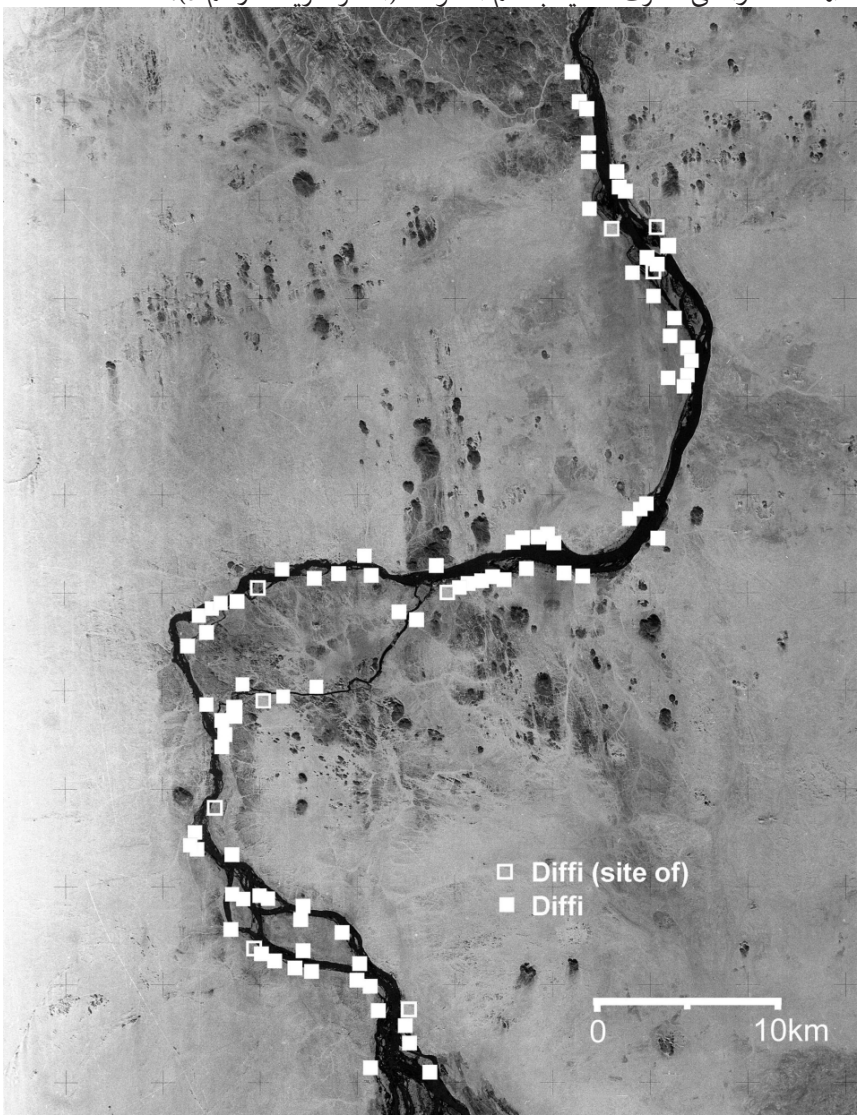

خريطة رقم (5). توضح مواقع المبنازل المحصنة «الدفوفة» Edwards, and Osman, 2012

من بين نتائج المشروع الهامة أيضاً، تم إنجاز 15 رسالة ماجستير و6 رسائل دكتوراه، جميعها من قسم الآثار بجامعة الخرطوم، تحت إشراف مدير المشروع. تعكس هذه الرسائل الجهود الأكاديمية المتميزة التي قام بها الطلاب، وتساهم بشكل كبير في إثراء البحث العلمي في مجال الآثار والدراسات التاريخية في السودان. كما تقدم هذه الدراسات تحليلاً معمقاً لمختلف جوانب التراث الثقافي والبيئي للمنطقة، مما يعزز من فهمنا للموارد التاريخية والثقافية ويؤكد على أهمية هذا المجال في الأبحاث الأكاديمية (أنظر الشكل 1).

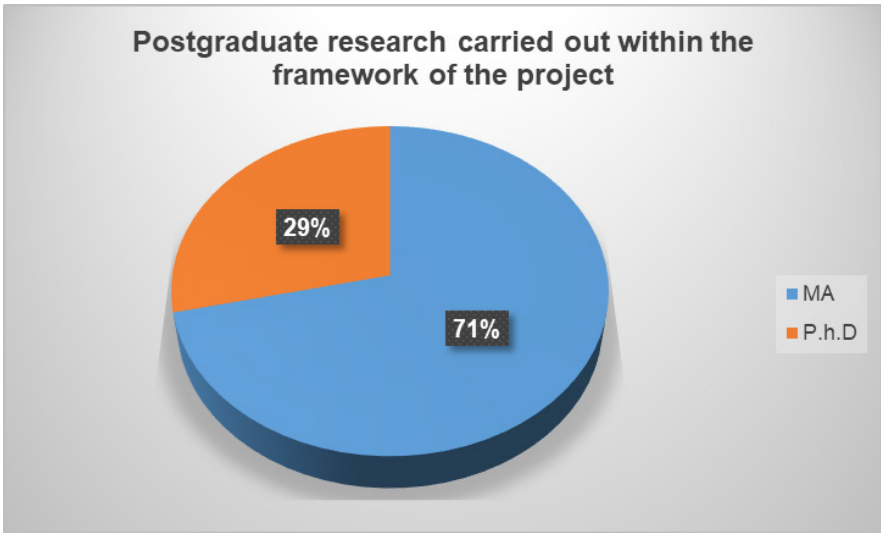

الشكل (1) يوضح مجموع الدرجات الأكاديمية والدراسات العليا التي أجريت في إطار المشروع

تعكس هذه الاكتشافات أهمية منطقة الشلال الثالث كموقع ديناميكي ومؤثر في تاريخ السودان، مما يستدعي المزيد من الدراسات لفهم كامل لتاريخها الغني.

المواسم الأخيرة 2014 - 2021:

تعد نوري من المواقع الأثرية الهامة التي أسهمت الاكتشافات السابقة فيها في بناء معرفتنا بتاريخ المنطقة، حيث تم التعرف على العديد من الوثائق والنقوش الهامة مثل نقش الملك سيتي الأول، الذي يروي تقديم أراضٍ من النوبة السفلى إلى معبد أبيدوس في مصر، وتم ترجمته ونشره في مجلة الآثار المصرية في عام 1952 (Gardiner, 1952)). كما تم اكتشاف وثيقة مسيحية مكتوبة باللغة النوبية القديمة، تتعلق باتفاق بين مالك ساقية ومزارع نُوبي. ومن خلال الكتابات التاريخية للرحالة مثل ابن سليم الأسواني وشلبي العثماني، تم الحصول على تفاصيل إضافية حول تاريخ المنطقة، بما في ذلك القصر العثماني الواقع عند سفح الجبل الغربي (Osman, 2015)). ورغم الاهتمام الكبير من قبل العلماء في فترات سابقة، إلا أن العمل الميداني لم يكن كافياً لتوثيق هذه المواقع بشكل شامل.ومنذ عام 2014 وحتى 2021، تحول العمل الأثري في نوري إلى تركيز أكبر على دراسة وتوثيق المواقع الأثرية في منطقة جبل نوري الغربي، وذلك نظراً لأهمية هذه المنطقة

الغنية بالآثار. يتضمن المشروع دراسة مجموعة من المواقع الهامة مثل القصر العثماني، قرية جير، محجر الجبس، والنقوش المصرية القديمة على الجبل الشرقي (أنظر الشكل 2). يهدف من هذا المشروع إلى تقديم دراسة شاملة لتاريخ المنطقة وتوثيق تطورها عبر العصور، خاصة في ظل عدم وجود دراسات ميدانية دقيقة كافية لتغطية هذه المواقع بشكل كامل. وبذلك، يسعى المشروع إلى فتح آفاق جديدة لفهم تاريخ نوري وتوثيقها كجزء من التراث الثقافي الغني في المنطقة.

الشكل رقم (2). يوضح قرية جير صورة مأخوذة من قمة الجبل الغربي، ويظهر الجبل الشرقي في الإطار

الجبل الغربي:

تتكون الآثار الموجودة على سطح الجبل الغربي من مجموعة متنوعة من المواقع والمكونات الأثرية التي تعكس مراحل تاريخية متعددة. تشمل هذه الآثار قلعة حجرية كبيرة تقع عند سفح الجبل، تضم برجين حجريين وأكواماً من قطع الحجارة المتناثرة، ما يشير إلى وجود مبانٍ كانت جزءاً من حصن أو قلعة. كما يوجد جدار حجري قائم يصل ارتفاعه إلى حوالي متر واحد، ويعد من البقايا المميزة التي تدل على أن المنطقة كانت مأهولة أو محمية. بالإضافة إلى ذلك، توجد مباني طينية ملحقة بالقلعة، ربما كانت تستخدم في مختلف الأغراض السكنية أو العسكرية. في الجزء العلوي من الجبل، توجد منطقة سكنية ومقدسات تضم مجموعة من المباني السكنية والكنائس، التي تشكل حياً سكنياً متكاملاً يعود إلى العصور الوسطى، ويحتمل أن تكون مقراً لحكام أو نبلاء، مثل صاحب الجبل، نائب ملك مملكة دنقلا المسيحية. وفي الجزء العلوي من الجبل، توجد منصة من صنع الإنسان تغطي سطح الجبل، وهي تشير إلى مكانة الموقع الأثرية

والاستراتيجية، حيث توجد فيها أيضاً مباني كبيرة يُحتمل أن تكون قصراً ملكياً وكنيسة متصلة به (أنظر الشكل 3).

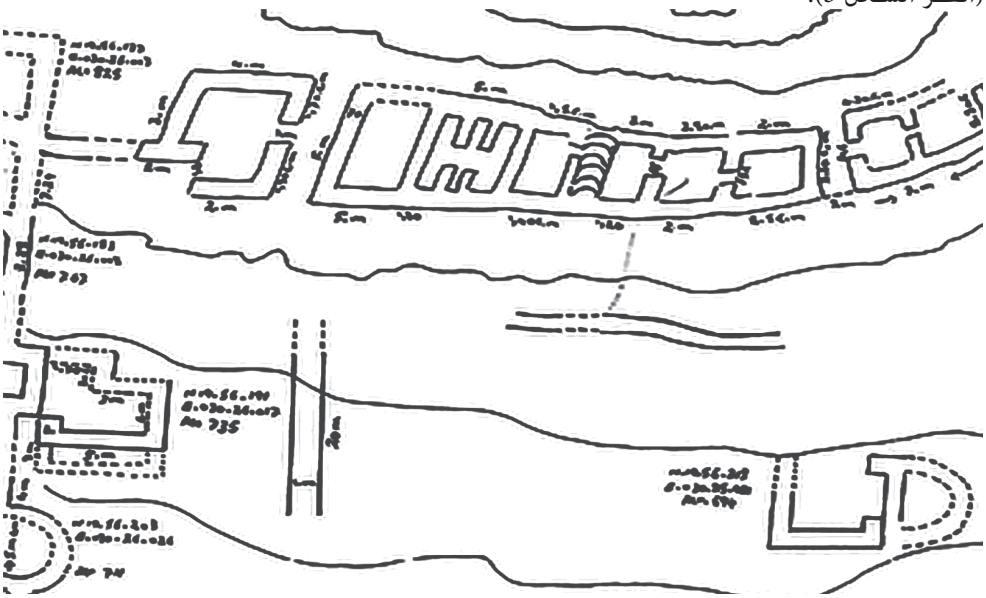

الشكل (3). رسم تخطيطي للمباني الموجودة على المنطقة المستوية على ارتفاع 880 قدم فوق سطح الجبل الغربي.

إلى اليسار من هذه المباني، توجد إعادة تشكيل غريبة لقمم الجبل المقطوعة. أما إلى اليمين من هذه المباني، باتجاه الجنوب الجغرافي، يوجد كهف كبير مع أرضية مسطحة، وعليها أكثر من 200 صليب قديم من العصور المسيحية المبكرة، والمعروفة عادة بالصليب الأكسومي. هذه الصلبان تُعتبر من أصل جنوب آسيوي، وترتبط بطائفة تُسمى «طائفة يوليوس من هاليكارناسوس»، التي نشأت في مصر بين عامي 518 و520 ميلادي. ومن ثم انتشرت في شبه الجزيرة العربية نتيجة لنشاط بعض الشخصيات مثل إيوروتروبيوس، الذي عين عشرة أساقفة في منطقة العرب وأرسلهم في جميع الاتجاهات. ومنذ عام 525 ميلادي، أصبحت المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة العربية تحت سيطرة مملكة أكسوم، وانتقلت بذلك تعاليم يوليوس إلى أكسوم، ومن هناك إلى سوبا في مملكة ألوا. لا يمكن تحديد تاريخ دقيق، لكن من المعقول افتراض أن تعاليم الأفثارودوكسية كانت تنتشر في أكسوم قبل عام 550 ميلادي، وأنها وصلت إلى ألوا قبل وصول لونجينوس إلى هناك. لقد كنا مندهشين قليلاً لاكتشاف هذا الكهف ووجود هذه الصلبان القديمة التي تجاوزت الـ 200 صليب، حيث كان يُعتقد أن اثنين فقط قد تم اكتشافهما من قبل، أحدهما في سوبا والآخر في إخمندي في النوبة السفلى، كما نعلم أيضًا من لونجينوس أن ملك ألوا طلب منه أن يطرد هذه الجماعة المسيحية الهرطقية التي كان رمزها المسيحي هو هذا الصليب (Vantini 1981).)أنظر الشكل 4).

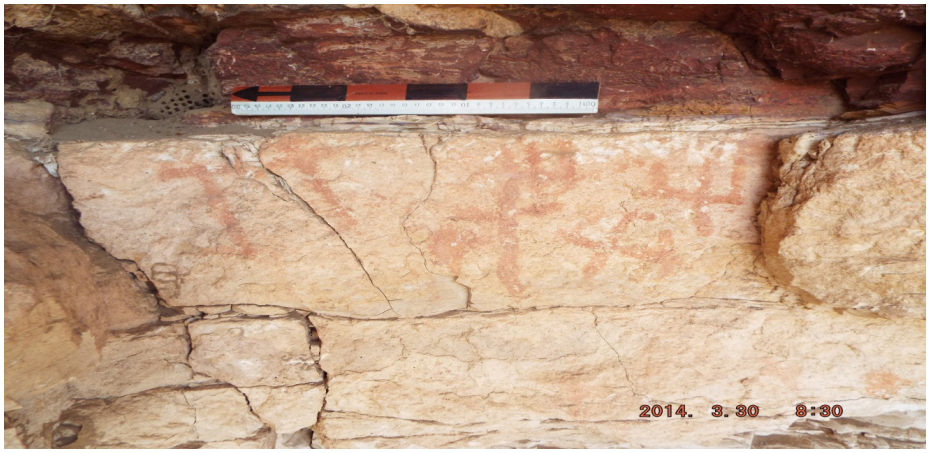

الشكل (4) يوضح الكهف وبداخله رسومات الصلبان

خاتمة:

تمثل نتائج مشروع المحس، الذي انطلق في الموسمين الأول والثاني (1990-1991)، إضافة مهمة لفهم تاريخ المنطقة. في البداية، تم استكمال المسح الأثري للضفة الغربية للنيل من حنك إلى كجبار، وتوسيع العمل ليشمل الضفة الشرقية والجزر، مع تخطيط لتمديده شمالاً حتى جبل سيسى – دلقو. ورغم التحديات التي واجهت المشروع، مثل نقص الخرائط المناسبة، فقد نجح الفريق في تسجيل 120 موقعاً أثرياً (Osman, 2004; Edwards et al., 2012)، مما شكل إنجازاً كبيراً في توثيق التراث الثقافي للمنطقة، بما في ذلك فترات ما قبل التاريخ والعصور الوسطى. تضمن المشروع اكتشاف مواقع تعود للعصور الحجرية والبرونزية والحديدية والعصور الإسلامية المبكرة. من بين هذه الاكتشافات كانت المواقع الأثرية في قريتي نوري ومشكيلا، حيث تم توثيق الكنائس والمباني السكنية التي تعود للمسيحية الأكسومية في نوباتيا، فضلاً عن صلبان أكسومية في جبل نوري التي تقدم أدلة على انتشار المسيحية في المنطقة في وقت مبكر. تعد هذه الاكتشافات خطوة هامة نحو فهم أعمق للتراث النوبي، وقد توفر الأساس لدراسات مستقبلية تشمل جوانب أخرى من التاريخ النوبي القديم، بما في ذلك تأثيرات المسيحية على المنطقة وتفاعلها مع الديانات الأخرى، فضلاً عن التفاعل الثقافي بين نوباتيا والدول المجاورة مثل مصر وبلاد العرب. هذه الاكتشافات تسهم في تعزيز فهمنا لتاريخ الدين والعلاقات السياسية في المحس، وتعد أساساً لدراسات مستقبلية باستخدام تقنيات متقدمة مثل GPS لتحديد المواقع بدقة أكبر.

Bibliography:

(1) Bashir, M., Mamoon, S., & Khaleel, O. (2021). Kedurma Eastern Hinterlands in North Sudan: An archaeological Survey. Der Antike Sudan. Mitteilungen der Sudanarchäologischen Gesellschaft zu Berlin e. V., 32, 29-43.

(2) Bell.H & Hashim M. J 2002. 'Does ate live on in (Kowwa)? Sudan & Nubia 4: 42-6.

(3) Edwards, D. N. (2004). The Nubian past: An archaeology of the Sudan. Routledge.

(4) Edwards, D. N., Osman, A., Fadl Tahir, Y., Mustafa Sadig, A., & Soghayroun el-Zein, I. (2012). On a Nubian frontier—landscapes of settlement on the Third Cataract of the Nile, Sudan. Azania: Archaeological Research in Africa, 47(4), 450-487.

(5) Essien, K., & Falola, T. (2008). Culture and customs of Sudan. Bloomsbury Publishing USA.

(6) Gardiner, A. (1952). Some reflections on the Nauri Decree. The Journal of Egyptian Archaeology, 38(1), 24-33.

(7) Griffith, F. L. (1927). The Abydos Decree of Seti I at Nauri. The Journal of Egyptian Archaeology, 13(1), 193-208.

(8) Haaland, R. (1977). Archaeological classification and ethnic groups: A case study from Sudanese Nubia.

(9) Hashim, M. J. and Bell. h. 2000. 'Reconstructing History of Settlement Pattems in the Mahas evidence from language and place - names'. Sudan & Nubia 4: 71-78.

(10) Hashim, M. J. 2001. 'An orthography for Nobian a Contribution to the Debate'. sudan studies 25; 44-51.

(11) James, W. (2008). Sudan Majorities, minorities and language interactions. Language and national identity in Africa, 61 – 78.

(12) Jok, J. M. (2015). Sudan Race, religión, and violence. Simon and Schuster.

(13) Osman, A. (1990). "Nationalist Archaeology. The case of the Sudan". In Bonnet, Ch. Etudes Nubian's Conference de Geneve. 3-8 September 1990. Voll. Pp. 225-236.

(14) Vantini, G. (1981). Christianity in the Sudan.